الفصل الثانى عشر

الرجال الجوف [1]

إن الإشارات الأخيرة فى قصيدة « الأرض الخراب » لتداعى المجتمع الحاضر تربطنا « بالرجال الجوف » الذين يكونون فى مجموعهم هذا المجتمع . وتبين لنا هذه القصيدة أقصى ما وصل إليه إليوت من يأس ، فرجال العصر الحاضر فى نظره ما هم إلا تماثيل مليئة بالقش ، إذ يقول :

« نحن الرجال الجوف
حشينا بالقش
نميل معاً
وقد امتلأت رؤوسنا بالقش . وأسفاه !
إن أصواتنا الجافة
حينما نتهامس معاً
هادئة لا معنى لها
كالريح فى الحشائش الجافة
أو وقع أقدام الجرذان على الزجاج المحطم
فى خزانتنا الجافة
مظهر بلا شكل ، ظل بلا لون ،
قوة مشلولة ، إيماءة بلا حركة »[2] .

فى هذه القصيدة يعود إليوت إلى دراما النفس أو الدراما الداخلية للنفس

---

(١) " The Hollow Men "

(٢) " We are the hollow men
We are the stuffed men

البشرية ، فنستمع فى هذه الأبيات إلى صوت أحد الرجال الجوف فى منولوج داخلى ، وهو فى مناجاته لنفسه إنما يعبر عن مشاعره بقدر ما هو لسان حال الجماعة كلها التى ينتمى إليها . إن الرؤوس المليئة بالقش لابد وأن تخرج أصواتاً جافة كما تدور بداخلها « أفكار » لا معنى لها . إن هذا الرجل الأجوف يتذكر القدامى الذين قابلوا الموت بشجاعة ، فيقول فى انزوائه :

« أولئك الذين رحلوا
إلى مملكة الموت الأخرى ، وهم شاخصين أبصارهم :
عليهم ألا يذكرونا — إن شاءوا —
كأرواح قوية ضائعة
بل يذكرونا كالرجال الجوف
الذين حشوا بالقش » .

أولئك الذين عبروا الطريق وجازوا سكرة الموت بثبات وإيمان وشجاعة وهم شاخصين أبصارهم إلى عالم الآخرة ، لهم منا كل تقدير واحترام . وكل

Leaning together
Headpiece filled with straw. Alas !
Our dried voices, when
We whisper together
Are quiet and meaningless
As wind in dry grass
Or rats' feet over broken glass
In our dry cellar
Shape without form, shade without colour,
Paralysed force, gesture without motion."

Ibid., "The Hollow Men," p. 87.

(١) "Those who have crossed
With direct eyes, to death's other Kingdom
Remember us — if at all — not as lost
Violent souls, but only
As the hollow men
The stuffed men."

Ibid.

ما نرجوه منهم أن يذكرونا لا كأرواح قوية قد ثبتت أقدامها فى العالم الآخر ، فهذا مطلب عسير المنال يصعب علينا كرجال جوف أن نحققه ، بل أن يذكرونا بحالتنا الراهنة وقد شلت حركتنا وأصبحت حياتنا كالظل الذى لا طعم ولا لون له .

إن الذين جازوا الطريق بسلام وجدوا
« هنالك العيون
وهى تضىء على العمود المهشم
هنالك تجد الشجرة وهى تتمايل
وتسمع الأصوات
التى اختلطت بغناء الريح
وهى أبعد مكاناً وأشد رهبة
من النجم الخافق »[1] .

والعيون هنا كناية عن الحقيقة الخالدة فى العالم العلوى . أما العمود المهشم فهو يشير إلى تداعى العالم الحاضر الذى تضىء عليه أحياناً الحقيقة الخالدة . ويتبين من وراء هذا الشعاع بين الفينة والفينة صفوة القوم الذين أمكنهم طرح ظلمة الجسد خارجاً فتتألق الروح ، ومن ثم تقترب أرواحهم من الحقيقة وتتكشف لهم أسرارها وخباياها . أما الشجرة التى تتمايل فترمز إلى شجرة الخير والشر فقد تمايلت حين قطف آدم ثمرة من ثمارها . والأصوات المختلطة بغناء الريح هى أصوات الأنبياء والمتصوفة حينما تختلط بالأناشيد الملائكية العذبة .

---

(١) "There, the eyes are
Sunlight on a broken column
There, is a tree swinging
And voices are
In the wind's singing
More distant and more solemn
Than a fading star."
Ibid., pp. 87-88.

ذلك هو العالم العلوى بساكنيه من الأرواح الطاهرة النقية ، وبحقائقه الخالدة . أما عالمنا الأرضى فيتمثل فى

« هذه الأرض الميتة
أرض الصبار
حيث تنصب الأوثان
وحيث نتلقى
الضراعة من أكف الموتى
تحت لألأة نجم خافق » .(١)

هذه هى « الأرض الخراب » بعينها ، أرض الأموات والصبار وقد خلت من أى مظهر من مظاهر الحياة ، تقام الأصنام فى كل ركن من أركانها ، فيضرع لها « الرجال الجوف » . وهذه الأصنام رمز لعبادة المال أو الشهوة أو الجاه . إن نجم هذه العبادات كلها آخذ فى الأفول لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً .

وفى هذه الأرض أيضاً

« لا توجد العيون
العيون لا وجود لها هنا
فى وادى النجوم الخابية
فى هذا الوادى الأجوف
فى هذا الفك المهشم لمالكنا الضالة »(٢) .

---

(١) "This is the dead land
This is cactus land
Here the stone images
Are raised, here they receive
The supplication of a dead man's hand
Under the twinkle of a fading star."
Ibid., p. 88.

(٢) "The eyes are not here

فعيون « الحقيقة » التى ننفذ إليها ببصيرتنا العميقة لا وجود لها بين ضلال هذا العالم . إن « الفلك المهشم » كناية عن الحطام والدمار والخراب الذى أصاب العالم عقب الحروب والمنازعات ، فتحول بين عشية وضحاها إلى وادى أجوف ، تتردد فيه الأصوات ، وتنحسر فيه النجوم عن مدارها الطبيعى . وفى وسط هذا الحطام يحاول « الرجل الأجوف » جاهداً أن ينفذ إلى « الحقيقة » فيتعثر فى صلاته :

« بين الفكرة
والحقيقة
وبين الحركة
والحدث
يسقط الظل
لأن لك الملك
وبين التصور
والخلق
وبين الانفعال
والاستجابة
يسقط الظل
ما أطول هذه الحياة
وبين الرغبة
والنشوة

There are no eyes here
In this valley of dying stars
In this hollow valley
This broken jaw of our lost kingdoms."
Ibid., p. 89.

وبين النفوذ
والوجود
وبين الجوهر
والحلول
يسقط الظل
لأن لك الملك »[١] .

ويرمز هذا الظل إلى الأجسام المادية التى تقف حائلاً بين هذا « الرجل الأجوف » وبين رغبته فى معرفة أسرار العالم الآخر ، إذ يقع هذا الظل بين الجوهر والحلول ، وبين الفكرة والحقيقة ، وبين التصور والخلق ، والانفعال والاستجابة له .

إن بحث إليوت حول هذه القضايا الفلسفية التى تتصل بالجوهر الكلى والحلول كصورة مرئية من صوره العديدة ثم الحركة والقوة الدافعة إلى أن نصل إلى

---

(١) "Between the idea
And the reality
Between the motion
And the act
Falls the Shadow
For Thine is the Kingdom
Between the conception
And the creation
Between the emotion
And the response
Falls the Shadow
Life is very long
Between the desire
And the spasm
Between the potency
And the existence
Between the essence
And the descent
Falls the Shadow
For Thine is the Kingdom."
Ibid., pp. 89-90.

ما أطلق عليه أرسطو اسم « المحرك الأول » . ثم الأشكال والأعراض المختلفة التى تعطينا المظهر الخارجى للب الأشياء وكنهها . وكيف أن هذا الجوهر متكامل فى حد ذاته ، أما الأعراض الخارجية فهى دائمة التغير والتقلب ؛ هذا الجرى وراء هذه الحقائق الفلسفية هو الذى يفسر لنا إقدام إليوت على كتابة القصيدة التالية .